أدب الأطفال بين قيود الحاضر وأحلام المستقبل

إعداد أ./ فريد محمد معوض[1]

هل يأتي على أدب الأطفال حين من الدهر يصبح فيه شيئا مذكورا . . كائنا هاما نستشعر وجوده ونحلم معه بمستقبل مشرق . .

من حق أدب الأطفال ألا يكون فقط للاستهلاك . . حقه علينا أن نقيم خطواته ونتوقف عند مواطن العلة إن وجدت فيه . . ونفرح وهو يشهد تطورا جديدا في اللغة والجمال والمضمون فهل أتي هذا الحين . .

يعاني أدب الأطفال من عدم الالتفات إلى مقوماته الجديدة، يأسف لأن المتابعين له ما زالوا يعيشون أصداء الماضي منذ بداية القرن العشرين وحتى ثلثه الأخير ونرى الأكاديميين يقفون دوما عند بعض القصص الدائمركية لأندرسن وتجربة مبدعينا العظام من أمثال محمد سعيد العريان ومحمد عطية الإبراشي وكامل كيلاني وان امتد الاهتمام فهو يصل ليعقوب الشاروني وعبد التواب يوسف وأحمد نجيب ثم يتوقفون بعد ذلك وكأن الأرض أجدبت بعدها متجاهلين تجارب مبدعين جدد . . انصهرت تجاربهم بخبرات الكتابة للكبار . . توضح ذلك الإصدارات الخاصة بأدب الطفل سواء من المؤسسات الثقافية أو دور النشر الخاصة . . بل وصل الأمر لأن يقرر الدكتور مصطفى رجب وهو من المبدعين والنقاد المتميزين بأنه لا يوجد أدب أطفال في الوقت الحالي . . وتداخل معه بعض الحاضرين ليؤكد أن أدب الأطفال يشهد انتعاشة لا بأس بها : قال يسعدني أن أتعرف على هذه الكتابات . . وهذا يعني أن ذلك سيحدث إن قدمت للأساتذة هذه الكتابات . . وهنا تغيب ضرورة البحث من قبل الباحث . . بل أصبح الجواب السهل للكثيرين عن أدب الطفل الحديث عن الطفل ذاته سيكولوجيا دون اطلاع على حصاد أدب الأطفال وهو حصاد لا بأس به فإلي جانب ما تقدمه دور النشر العامة والخاصة فهناك عدد وافر من المجلات الأسبوعية والشهرية تطرح عددا كبيرا من النصوص الإبداعية سردا وشعرا وتحتاج جميعها إلى مواكبة نقدية .

علاء الدين تقدم قصتين كل أسبوع وقطر الندى تقدم من ثلاث إلى أربع قصص وقصة لمجلة

(1) كاتب أطفال وعضو اتحاد كتاب مصر .

سمير وأحيانا قصيدة وخرجت ميكي من غربتها لتقدم نصا أسبوعيا وهناك مجلة الفردوس التي تقدم من قصتين إلى ثلاث قصص كل شهر . .

بالطبع غير المجلات العربية مثل أحمد اللبنانية . . وماجد الإماراتية وفراس الأردنية وباسم السعودية . . وفي الكويت براعم الإيمان وغيرها . .

إن متابعة المحصول السردي لهذه المجلات يكفي لتأكيد نقطة الضوء التي تبين تصاعدا بيانيا فيما يقدم لأدب الطفل . . بالطبع لسنا هنا بصدد الحديث عن السيناريوهات المصورة (الكوميكس) أو مساهمات الأطفال والمسابقات . . فهذا موضوع آخر هنا فقط نشير إلى غياب نقد أدب الأطفال وهو غياب واضح في المؤسسات الثقافية والكليات المتخصصة بالطبع دون إهدار لحقوق بعض الأماكن النشطة التي تحاول أن تنحت في الصخر .

أشرنا إلى وجود محصول لا بأس به في أدب الطفل في ظل غياب نقد أدب الطفل دون أن نقف على حقيقة ما يقدم للأطفال، بالفعل تقدم المطابع أدبا خالصا بعيدا عن شبهة التوجيه . . أدب استفاد من تقنيات القص الجديدة في اللغة والاختزال . . ومعايشة الخيال وإعادة استلهام التراث بروئ جديدة وروح جديدة تتحقق فيه المتعة والجاذبية . . وهذه نماذج لا تجدها بسهولة في ركام المطروح بل تحتاج إلى بحث يستند إلى مرجعية الكاتب أو أهمية الموضوع . . وتحتل كتب الإعداد مساحة كبيرة على مائدة العرض . . وقلما تجد الإبداع مساعدا في طريقة العرض . .

وتتواجد كتب أخرى في مجالات مختلفة مثل الكتب الدينية . . والخيال العلمي . . والتاريخ وتبسيط العلوم . . وعدد وافر من العناوين الأخرى التي تحتاج بالفعل إلى تقييم نقدي . .

ويمكنك معرفة الكتب التي تم إنجازها لأغراض تجارية . . فهذه تمشي مع الخليج، وهذه لقائمة كتب المدارس . . وهذه لموضوعات أخرى ولأن هذه موضوعات تحتاج إلى معايشة لطبيعة الموضوعات المقدمة فسوف تجدها الأضعف . . تتدنى فيها اللغة وتتراص فيها المعلومات لتضيف عبئا جديدا للطفل القارئ الذي يعاني من دسامة المنهج وامتلاء الحقيبة الدراسية التي تقوس ظهره بسببها بكتب التلقين التي تجعل أطفالنا متشابهين حتى في الوعي بالأمور . . فهو منهج مكرر ويقدم صورا مستنسخة للفن والحياة . . ولا تشجع على الإبداع .

ولا نستطيع أن نكرر نشاطا ملحوظا في حركة النشر وتفعيل أدب الأطفال لكن في الحقيقة تغيب فيه الرؤية وقلما يمكن أن تقبض بيدك على مشروع معين يمكن أن يساهم في حركة بناء المجتمع من ناحية وتطوير أدب الأطفال للأفضل من ناحية أخرى .

أشرنا إلى دور المجلة في النهوض بالنص السردي لكن هل عدد المجلات التي تصدر في مصر يليق بمكانتها البارزة؟ ثم أشرنا لما تقدمه المطابع من إصدارات لأدب الطفل، وقلنا إن الحصاد لا ينتصر لأدب الأطفال كقيمة وأن الجانب التجاري يكون هدفا أساسيا في صدور الكثير من تلك الكتب .

وأضف إلى ذلك سعى الكثير من دور النشر للتعلق بجهات تمويلية أحيانا تكون كافية لتجريد أدب الأطفال من خصوصيته التي تميز بها، والتي اكتسبها أدبنا من إرث حضاري طويل وتراث عربي مجيد.. واتجاه هذه الجهات لعولمة كل شيء حتى أدب الأطفال الذي ما يزال يحمل عندهم طابعهم وتاريخهم فهل أرادوا لنا أن نذوب بما نملك في بحرهم الغارق بالسموم، منذ فترة قليلة قدمت الولايات المتحدة الأمريكية دعما دولاريا ضخما تصارعت عليه أكبر دور النشر في مصر لإنتاج عدد كبير من كتب الأطفال لعلهم أرادوا بإصدارها أن يصلوا إلى شرق أوسط جديد يقدمونه للطفل..

وقدمت الجهة الممولة لدور النشر قائمة تمثل ورقة عمل لتنفيذ هذه الكتب التي تراعي فيها..

- اختيار الموضوعات التي تتناسب مع ما يسمى بثقافة السلام.. السلام من منظور أمريكي
- الموضوعات البيئية بالطبع لها مكان على خارطة الاهتمام فالدول المتخلفة – ونوافقهم على ذلك – هي التي لا تولي للبيئة اهتماما..
- البعد عن الموضوعات الوطنية أو التي تشجع على الانتماء للوطن والدفاع عنه
- الابتعاد عن الموضوعات الدينية بالذات..

ولأن هناك صراعا بين دور النشر فكان التسابق على تحقيق الشروط قويا وكان الحرص في التنفيذ أقوى مما يمكن أن يحدث في ظل إشراف أمريكي وحاول بعض المبدعين المصريين أن يدخلوا إلى موضوعات بعيدة عن مناطق الألغام.

فنشأ أدب أطفال باهت.. اللهم إلا ذاك الأدب الذي تم كتابته بعيدا عن أي قصيدة ثم انطبقت عليه الشروط..

وهكذا كان على كتاب الطفل أن يتحروا الدقة في التعبير عن عالم لا ينتمون إليه.. بلغة فنية ليست منا بمفردات بيئية لا تنتمي لنا ويسلك أدب الأطفال طريقه بين الصخور العاتية فتضيع ملامحه ويفقد رونقه الجميل.

ويتعثر في سيره ويبدو بطيئا في اتجاه المستقبل الجميل.

المسابقات:

لا ينكر دور المسابقات الأدبية إلا جاحد بها فهي تمثل إشعاعا جميلا في حركة الإبداع بوجه عام ولأدب الأطفال بوجه خاص.. لكن أحيانا تكون هذه المسابقة تمثل قيودا للكاتب تجعل الأدب يعاني هزالا وفقرا حادا من الألق الجميل.. فإذا كانت دور النشر قد قيدت الكاتب في اتجاه موضوعات معينة بعيدا عن موضوعات أكثر أهمية فإن المسابقة تجعل الكاتب مثل لاعب السيرك الذي يجيد السير على الحبال.. فهناك مسابقات تنطلق من أيديولوجيا معينة.. وأخرى تحدد إطارا للقصة " اكتب في موضوع كذا في حدود سطور معينة أو عدد كلمات " مما يجعل الكاتب يعد كلمات القصة مثلما يعد

أنفاسه وهو يكتب . . فهل يمكن أن يكون ذلك لصالح أدب الأطفال . . أدب الطفل الذي يتميز بالخيال الجميل . . أو الواقع في صورة مغايرة . . أو الحدوتة التي تمثل الصدر الدافئ للطفل ، هل يمكن أن تقصقص لوحة جميلة بحجة أنها اتسعت أو تضيف إليها بحجة أن لديك إطارا أوسع ، هل للجمال والمتعة سقف يمكن أن نحدده أو نؤكده . . يمكننا هنا ان نشير إلى مسابقة السيدة سوزان مبارك باعتبارها بالفعل مسابقة ناجحة قدمت كتبا جميلة وكتابا متميزين عبر سنوات تواجدها من 1989 وحتى عام 2006 . . كيف بدأت وكيف صارت ومدى استفادة الطفل في الحالتين .

- تم الإعلان عن المسابقة لأول مرة عام 1988 .
- لم تحدد المسابقة سنا معينا ولم تصنف الكتاب إلى هواة ومحترفين . . كان المحك فيما ينبغي أن يقدم من إبداع .
- لم تحدد موضوعات معينة لابد أن يكتب فيها للطفل بل حددت النوع الأدبي فقط (شعر وقصة) كانت المحصلة ظهور أجيال جديدة وسط أسماء كبيرة منها كاتب هذه السطور ونظرا لارتفاع المستوى تم طباعة عشر مجموعات قصصية للطفل وعشرة دواوين شعرية للأطفال عام 1990 حددت مجال التسابق في المسرح وأدب الخيال العلمي وتركت للمبدع حرية الكتابة فيما يريد وفي هذا العام فاز فؤاد حجازي ومنير فتح الله والراحل فتحي فضل ومحمد عبد الحافظ ناصف . . والراحل جمال عساكر وفراج مطاوع وكاتب هذه السطور وفي الخيال العلمي شامخ الشندويلي وشقيقه فداء وعام 92 كان في التاريخ وظهر استلهام التاريخ بشكل رائع . . عبر نصوص أدبية . . كانت تطبع وتوزع في حفل الافتتاح .

عام 96 تم تحويل المسابقة من الهيئة العامة للكتاب إلى جمعية الرعاية المتكاملة وتم الآتي :

- تم تقسيم الكتاب إلى هواة ومحترفين .
- تم استحداث جوائز جديدة للناشرين إلى جانب الكتابة والرسوم . .
- قام بعض الناشرين بدعم مسيرة المسابقة وقد أثر ذلك تأثيرا بالغا على قرارات لجان التحكيم في جوائز الناشرين .
- تم استحداث ما يسمى بكراسة الشروط التي تشبه كراسة شروط المقاولات الهندسية . . تباع الواحدة بخمسة جنيهات تحتوي على الموضوعات المطلوبة للكتب والرسوم بطريقة حجر رشيد قبل فك رموزه .

لا شك أن المسابقة قد تطورت فيما يتعلق باستحداث جوائز جديدة وبرمجيات . . لكن ابتعدت كثيرا عن جوهر الإبداع . . لم يعد متاحا أن تشير إلى نص قوي يمثل إضافة كبيرة ونقول قدمته المسابقة . . فقط أردنا هنا أن نضع مسابقة كبيرة تحت المجهر ونحاول تأمل عناصرها ومدي تطورها عبر سنوات امتدت إلى ثمانية عشرة عاما وهنا يكمن السؤال هل ما زالت مسابقة سوزان مبارك تساهم بقوة كما كانت في دفع أدب الأطفال نحو التطور والمستقبل بعيدا عن هيمنة الموضوعات .

سؤال يبحث عن جواب

الواقع يقول أن النص الأدبي للأطفال يعيش في عزلة شبه تامة

المستفيد الأول من كتاب الطفل لا يصل إليه ولا حتى المجلة إلا بنسبة مئوية لا تتجاوز الـ 10 ٪ فالكتاب المزركش والملون كلما زادت تكلفته ابتعد بقدرها عن الطفل لارتفاع ثمن الكتاب وغياب الطبعات الشعبية التي كانت تملأ الأسواق . . يظهر أثر ذلك في مجلات الطفل التي تعلو أسعارها من جنيهين إلى ثلاثة مثل ميكي / علاء الدين / بلبل حتى المجلة التي لا يزيد سعرها عن جنيه وهي مجلة قطر الندي فهي لا تصل للطفل لأسباب منها :

- عدم جسارة الطفل للتقدم نحو المجلة لارتفاع ثمن مطبوعات الطفل كخلفية لديه .
- قلة الأعداد المطبوعة فهي لا تصدر عن مؤسسة صحفية .
- عدم وجود إعلان قوي يروج لهذا المجلة الزهيدة الثمن – في التليفزيون مثلا .

وبالتالي هناك عزلة واضحة بين الطفل وما يقدم إليه من نصوص أدبية .

جانب من العزلة يتحقق في تلك القطيعة بين النصوص الأدبية للأطفال وبين المثقفين . . وندرة الندوات التي تناقش أدب الطفل وتعطيه قدرا من الاهتمام في النقد والمتابعة ولو تتبعنا ما يتعرض له أدب الأطفال من إهمال وتهميش لطال الحديث . . سنجد هذا الكائن الرقيق المرهف الذي يتحقق فيه المتعة والجمال يئن حزينا من جراء هذا الإهمال .

ماذا يريد منّا أدب الأطفال؟

أن يأخذ حظه في الظهور للكبار والوصول إليهم . . في الأمسيات الأدبية . . ومنابر النقد واهتمام إعلامي يبرز أدب الأطفال ودوره الهام في صقل وجدان الطفل ودفعه نحو عالم أفضل وأجمل . .

تخصيص مساحة في المجلات الأدبية التي تقدم للكبار لنصوص أدبية للطفل ليحقق تواصلا مع الأدباء والقراء . .

وتشجع المبدعين الحقيقيين على ممارسة الإبداع الجميل للطفل . .

ستغطي هذه النصوص مساحات كبيرة وستكون بمثابة الطبعة الشعبية المؤقتة حيث تدخل بيوت كثيرة وتحقق تفاعلا مع الأطفال .

فضلا عن نص أدبي مترجم عن إحدى اللغات والتعريف به وبمؤلفه وإضاءة حول أدب الأطفال في البلد الذي ينتمي إليه الكاتب .

ستحقق أيضا هذه الفكرة تواصلا مع لغة الأعمال الأدبية للكبار وينشأ حوار بين الكبير والصغير حول جدوى كلمة وأهمية الإبداع . .

قيل لماركيز : لماذا لم تكتب للطفل قال لأنني لم أنضج بعد . .

ترى كم من الأعمال الأدبية التي تكتب للكبار يمكنها أن تحقق هذا النضوج وترفع صاحبها لدرجة أن يكتب للأطفال .

محاولة الاستفادة من التقنيات الأدبية للكبار في أدب الطفل وهي كثيرة اللغة . . طريقة التناول . . الاختزال . . الاستفادة من تداخل الأنواع الأدبية . . حداثة الرؤية . . الولوج إلى قلب الحدث . . الاستغناء عن التزيد الذي لا قيمة له . . لا مجال للشرح ما دام التدفق يصل بك للمعنى . . اللغة الشاعرية . . الإيقاع الداخلي للكلمات . .

تفعيل حركة نقدية تعالج هذا الموات الواضح . . فلا توجد دراسات بالمعنى الحقيقي لأدب الطفل المعاصر . .

تخليص أدب الأطفال من قيوده التي تسلسل براعمه وتمنعها من التفتح . . أن يكون الإبداع هو الهم الأولى . . فبدونه لن تصل لقيمة تريد أن ترسخها . .

رغم أننا لا نرضى بأي نوع من القيود . . إلا أن تحديد المراحل السنية ضرورة . . بل صارت علما يحتذى به .

فلكل مرحلة سنية قاموسها ولغتها الخاصة وموضوعاتها من مرحلة رياض الأطفال وحتى مرحلة الناشئة . .

عندما يتحرر أدب الأطفال من قيوده يمكنك أن تطمئن لمستقبله المشرق وقد تفتحت براعمه . . وعلت أشجاره وصار شيئا مذكورا .